

السيكولوجية الحديثة

التحليل النفسي
بمفرد فاسم



فرويد

عقل فرويد خصب جداً في ابتداع النظريات، يرسلها ارسالاً كلما وجد حاجة ماسة اليها، وكما وجد انها تتفق مع ما يقابله في علاجه من العتبات . انه لا يعنى كثيراً بتحقيق هذه النظريات وجمع الادلة عليها من الواقع او من التجارب في المعامل النفسية، لا يفعل هذا لانه لا يؤمن بالسيكولوجية التجريبية كما قدمنا في مقال سابق ، ولا يفعله ايضاً لانه معني بمعالجة الحالات التي تعرض له دون ان يهتم بالسيكولوجية نفسها كعلم قد ينفع وقد لا ينفع في شفاء الامراض ، وكل ما يهتم به هو هل تطبيق النظرية على تلك الحالة اللمينة بذاتها التي يملجها في وقت معين او لا تنطبق ؟ قلنا في المقال السابق ان رور وفرويد وجدنا صعوبات في تنويم المرضى منها انه يستعصي على بعضهم ومنها ان بعض من ينام منهم يصح مفتوناً بالطيب ، فكل رور هذه المعضلة بان ترك هذا الضرب من العلاج تركاً باتساً ، واما فرويد فقد حلها بان اغفل التنويم من طريقته في العلاج واستعاض عنه بشي ويشبه قليلا ويفضي الى النتيجة نفسها ، وهو ان يضع المريض في حالة بين بين ، يجلسه على مقعد مريح ، ويروح اليه بالطايبنة والنقعة ، وانه حر في ان يقول ما يشاء من غير حاجة الى التردد او محاولة كتب بعض الطوائف النفسية ، وبعبارة اخرى استعمل فرويد طريقة تداعي الخواطر بدلاً من التنويم ، فوجد انها تنفع في الحالات التي كانت تستدعي التنويم ونظريته في تداعي الخواطر «association» هي انه لا بد من ان تعود المريض الى الكشف عن علته الاصلية وحمل الطيب الذي يكون قد ألمت بمرارض المرض وعرف تاريخه وملازماته هو ان يترقب الخواطر التي تكون لها صلة مباشرة او غير مباشرة بالمرض ، وان يبحث فيما يقصه المريض عليه يجد علاقة بينه وبين مرضه ، فيدله على هذه العلاقة ويفتح ذهنه ، ويعينه على ان يضع الاشياء في مواضعها الاصلية من غير مبالغة او مغالاة او اغراق ، والمرض النفسي هو في الواقع نوع من الاغراق والمبالغة في الاهتمام ببعض المشاعر والرضيات

ولكنه وجد ان بعض المرضى يعرقل تلك انطواطر والمخاطر ويختار منها ما يصرح به وما لا يصرح به ، فيحكم عقله فيما يقول وفيما لا يقول ، فإكان من فرويد الأنا أنه سارخ ووصح نظرية المقاومة Resistance ليحل هذا الاشكال ، زاعماً ان في المريض شيئاً او قوة او ملكة او صفة كما كتبت وهذا الشيء يمنعني لان يداري عن بعض المشاعر النفسية ويحتجزها في قرارة النفس كأنه يبتقي عليها ليؤام الخش أو لظرف آخر ، او كأنه لا يملك انشاءها لسبب من الاسباب يجعله هو نفسه في معظم الحالات.

أخذ فرويد يبحث في هذا الشيء الذي يبتقي على بعض الحقائق ويضن بها ان تعلن فيما بين الناس او فيما بين المريض ونفسه ، اخذ يتساءل عن السر في هذه المقاومة ، ولماذا يقاوم المريض اصلاً اذا كان الاقضاء لا يقصد به شيئاً سوى شفاء المريض ورده الى حالة الصحة والسلامة . ما الباعث على هذا ؟ وكل الامور تدل على انه من حق الطبيب ان يعلم ومن حق المريض لابل من واجبه ان يتكلم ثم اخذ فرويد يجادل مرضاه ويتنصم ان يذكروا له كل ما يعين لهم من غير ان يتخبروا شيئاً للكلام فيه وشيئاً للضن به ، فكان من المرضى من يقول ان ما يحتجزه هو في الواقع شيء سخيف وثان لا شأن له في الموضوع ، ومنهم من يقول صراحة انه لا يفضل ان يتحدث فيما توارد على خاطره في تلك اللحظة لأنه لا يقدم ولا يؤخر في العلاج ، ومنهم من كان لا يقول شيئاً ولكنه يتردد في الحديث ويبدو عليه هذا التردد وانه يجاهد نفسه في اخفاء شيء بذاته

ولكن ما هذا الذي يصر على التضييل بفرويد ؟ ليس هو المريض بالطبع لان المريض قد حضر ليتعالج وليس ليقاوم الطبيب ويسد عليه المنافذ ، لم يأت ليجاهد ويناهض ويرتأي الآراء فيها له شأن في العلاج وفيما ليس له ذلك الشأن . وانما اتى طائماً مختاراً ليسلم نفسه للطبيب ويخضع لنصحه ومشورته ، حار فرويد في هذه الظاهرة زمناً ، واجتهداً زمناً آخر ، واذا هو يتقدم للعالم ، ذات يوم ، بنظرية طريفة ، وهل يشعل فرويد شيئاً سوى ان يقدم للعالم نظرية لأية حالة معينة قد تقع بين يديه

ومحصل هذه النظرية انه قسم العقل الانساني ، او النفس الانسانية ، او الشخصية ، او معها كما كتبت الى قسمين قسم واعٍ شاعر بما يعمل ، وهو ما يحسه الانسان ويعمل بناء على مشورته ، طارفاً في الوقت نفسه انه ينشط ويتصرف اجابة لداعي هذا القسم ، ثم سمى هذا القسم بالواعية Conscious ، وقسم آخر يشعر ايضاً بما يفعل ويريد ، ويعرف الدواعي لهذا الفعل وهذه الارادة ولكنه يخفي جميع هذه عن الانسان نفسه ، ويخفيها ايضاً عن الواعية نفسها ويضن بها ان تعرف في ابي حال من الاحوال . ومع ان هذا القسم مستور حقاً ، لا يحسه احد ولا يشعر بوجوده

احد الآخر أنه يملك من الوسائل ما يجعله يستطيع ان يستخدم الواعية كيف يشاء متى فراد ، وهذا القسم اسمه العقل الباطن Unconscious ، والعقل الباطن هذا له اغراضه وخصائمه التي يسعى الى تحقيقها ، وهو يحتملها بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ثم يطلب الى الواعية لا بل يأمرها ان تسوغ هذا التصرف امام الناس واما نفسها بأية طريقة تراها مستحقة له من الاعذار ما يرضيها ويرضي الناس ، هذا شأنها الذي لا يتدخل فيه العقل الباطن ولا يرضى به بحال من الاحوال

ولكن هل حقق فرويد نظريته هذه ؟ هل اجري عليها التجارب العلمية المطلوبة ؟ هل اختبرها بشكل يقطع كل شك في صحتها ؟ هل يستطيع ان يجزم ان العقل الانساني ينقسم الى واعية ولا واعية ؟ لا بل هل يستطيع ان يجزم بأن العقل الانساني ينقسم اصلاً ، واذا انقسم فهلا يفعل الأبهذه الطريقة وبهذا الوضع ؟ وما هي التجارب العلمية التي اجراها حتى يتحقق من هذا الزعم ؟ اما فرويد فانه لم يجرب تجارب اصلاً ، ولم يحاول ان يتحقق بوجه من الوجوه من صحة هذه النظرية لا بل زعم انه لا يستطيع للتحقق من صحتها بالوسائل السيكولوجية المعروفة لدينا في الوقت الحاضر ، وكل ما نعرفه عنها الآن انها قد تصدق وقد لا تصدق . وكل ما يقوله فرويد هو ان هذا هو الاساس الذي أسير عليه في علاجه ، وأرى انه يفيد ، وأرى انه معقول ، ثم ادعى انه ينطبق على الحالات التي تعرض لي ، ولستطيع ان تزى صحة هذه النظرية اذا ما دقت النظر في الحالات التي تعرض عليك

ولنسلم جدلاً بأن هذه النظرية صائبة ، وانها هي الواقع والحق ، فاذا بعد ذلك ؟ ما هو السبب الذي يدور الى المرض العصبي في هذه الحالة ؟ العقل الباطن يريد شيئاً فيفعله ، يسعى الى شيء فيحصل عليه ، ويطلق الواعية على الناس وعلى الانسان نفسه لتسوغ هذا التصرف او هذه الشهوة ، فأين العقدة في هذا اذن ؟ ولماذا تنشأ العقدة Psychoses or Complex اصلاً في هذا النظام ؟

عرضت هذه الاسئلة لفرويد كما عرضت لنا الآن . نحن نقف عندها حائرين ، واما هو فلا يجار لأنه يحل هذه المعضلة بنظرية اخرى او بتعديل في نظريته الأصلية ، فقد قلنا ان عقل فرويد خصب في اختراع النظريات فيعد ان قسم العقل هذا التقسيم ، ما قد قسم النفس الى ثلاثة اقسام حتى يستطيع ان يوجد مجالاً للعقدة في المرض النفسي او العصبي ، لان العقدة في المرض العصبي كما لا يخفى هي معضلة لم يجد الانسان لها حلاً معقولاً يريح النفس ويجعلها تنفرغ لشئونها ، واما هي موضع النزاع العنيف بين بعض عناصر النفس

زعم فرويد ان العقدة تنشأ من ان النفس تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اولها هو النفس الزروعة Id ، او هي ، لكن الرغبات والميول والشهوات ، هذا القسم أفاني لا يسعى الا لتحقيق شهواته واهوائه

انه شهوة مستمرة مستديمة ، تطلب شيئاً في كل حين ، وتفرغ الى اطفاء غلتها في كل آن ، ليس عنها الا ان تطلب وتلحف في اطلب . لا تفكر الا في نفسها ، وفيما تستطيع ان تحققه لنفسها من المنافع والذات ، هذا القسم هو في جوهره الرغبة والطلب والشهوة والهوى وهناك قسم آخر وهو الشخصية ego ووظيفة هذا ان يصل فيما بين الانسان وبين الدنيا الخارجية عن ذاته objective التي تحيط به ، بهذا القسم تتصل عن طريق الحواس بالاشياء والاشخاص والآراء ، وبه تتفاعل مع هذه الاشياء والاشخاص والآراء ، به تقوم بوظيفتنا في المجتمع ، يأخذنا الى الديوان ، ويقابلنا بالرئيس ويحملنا معهم ما يطلب منا الرئيس ، ويحرص على ان لا نغضب هذا الرئيس ، او نغضب غيره من ذوي النفوذ والسلطان ، ثم به تؤدي ما يطلب منا في الديوان وفي غيره ، ثم يعود بنا الى المنزل حيث نستريح ونستمتع بالحياة

لو سكت فرويد عند هذين القسمين لما استطاع ان يحل المعضلة التي اعترضتنا ، لاننا لو سلمنا جدلاً بصفة هذا التقسيم لما استطعنا ان نرى سبباً للامراض العصبية تنشأ في النفس ونعنيها فتعطلها عن ان تؤدي وظيفتها ، فاننا نستطيع ان نرى انه من الميسور جداً ان يكون في النفس قسمان مثل هذين ومع ذلك تعيش بمنجاة عن الامراض العصبية ، تستطيع الشهوة ان تتحقق ، وتنال ما تريد من اللذات المحللة والمحرمة ، وتستطيع الشخصية ان تقوم بوظيفتها من اتصال الانسان بالعالم الذي يحيط به في نفس الوقت ، يستطيع كل من هذين القسمين ان يقوم بوظيفته من دون ان يعطل الآخر ومن دون ان يكون ثمة حاجة الى عقدة تنشأ في نفس الانسان ، وبعبارة اخرى لا يستطيع هذا التقسيم ان يعطي سبباً معقولاً للمرض النفسي

وهنا يأتي القسم الثالث من النفس الانسانية حسبها يراها فرويد ، ذلك القسم عجيب حقاً لانه لا يمكن التحقق من وجوده بأي طريقة علمية فيما نرى . لقد افترحه فرويد وعلى العالم العلمي ان يقبله او يرفضه من غير سؤال او جواب شأننا في معظم ما يتقدم به فرويد . هذا القسم يحل الاشكال في رأي مدرسة التحليل النفسي ، ثم ان هذه المدرسة تزعم ان له وجوداً فعلياً في الواقع ، اما كيف تثبت من صحة هذه المزاعم ، كيف تثبت وجوده من غير ان ينسرب الى منطقنا الشك فهذا لا يعني تلك المدرسة على الاطلاق . لقد قالت انه موجود ، وقالت ايضاً انه ينطبق على جميع الحالات التي تمرض لاطباء هذه المدرسة وكفى ، ليس لهم شأن بالشكوك التي تاورثنا من جميع التراخي ، ذلك لان السيكلوجية الاكاديمية سيكلوجية ترتيب وتشك في كل شيء ما لم تصدها الحقائق صدماً عتياً ، وما لم يتعدر عليها الشك بوجه من الوجوه ، ثم يجب ان لا ننسى ان فرويد وسارتر لا يقيم وزناً للسيكلوجية الاكاديمية اصلاً ، فاذا عليها ان تشك هذه المدرسة او تنكرا

سار فرويد ومدرسته لا يلبون على شيء ، ولا يقبلون وزناً لتلك الاختبارات ، فرضاً ووجود هذا القوم فرضاً ، وسميها النفس العليا Super-ego . وهو شيء أشبه بالضمير في اللغة انسانية ، له مثله العليا وهي النفس الانسانية في اعنى مراتبها ، او هو الانسان كما يجب ان يكون ، ليس كما هو الآن في الواقع ، هذا الشيء خاص بالانسان دون جميع الخلائق ، هو عبارة عن انشئ الاعلى ، وأقرب تشبيه له هو نظام الاشكال عند افلاطون او كائط Kant's Categorical Imperative ، وهذا زعمه فيما زعم من آياتنا وجدودنا ، ولكنه يسرفنا من النطقولة على عمرنا او من بشكل من الاشكال ولكن مبادئه والمقاييس الاخلاقية عنده لا تتغير كثيراً ولا قليلاً

ولنعد الآن الى العقدة او المرض العصبي كيف ينشأ فنقول ان العقدة تنشأ من نشاط هذه الثلاثة الاقسام في النفس الانسانية ، بشرط ان يكون نشاطها في وجهات متضادة ، ويزعم فرويد ان هذا هو الحال مع كل انسان في الوجود ماعداً كان او مجنوناً ، مريضاً او سليماً ، فهو يقول في هذا الصدد « مرضاي هم الانسانية كلها » فلكل منا في رأيه عقدة نفسية ، او كل انسان مريض في جانب من جوانب النفس ، والانسان العادي السليم خرافة من الخرافات لا وجود له ولا اثر . بالطبع تختلف درجات الصحة والمرض باختلاف افراد الناس ، ولكن كل الناس مرضى على اي حال . وينشأ المرض بهذه الطريقة : — يريد الجزء النزوع منا Id امرأً وليكن كبيرة من الكبار ويلحق في هذه النزعة وتلك الارادة الحافاً شديداً حتى لا نجد راحة او هناة الا في اجابته الى مطلبه ، فتحاول الشخصية الواعية Ego اجابتها الى هذا المطلب فلا بد وان تعطلم باحدى عقبتين ، قد تعطلم اولاً بالاوضاع الانسانية ، او بالشخصيات الانسانية الاخرى ، فترى ان تحقيق هذه الشهوة متمذر لسبب من الاسباب ، فتعود عليها (على ال Id) فتخاصمها وتقاومها ، وتستر بينهما الحروب الى درجة تصيب الانسان بالمرض العصبي

او قد لا نجد من الدنيا الموضوعية Objective World مقاومة في تحقيق نزعة النفس هذه ولكنها نجد هذه المقاومة من النفس العليا فيشتجر الخلاف بينهما وتعرض النفس ، فكان المرض ينشأ من ان النزعة والنفس العليا تغفلان الواقع كل الانغال ولا تهجان الا بنفسيهما ، احدهما يزيد الشر والاخرى تريد الخير بغض النظر عما تستطيع الشخصية تحقيقه من هذا او من ذلك . ان مطلب هاتين النفسين مطلب خيالي لا يمت الى الحياة الواقعية بسبب ، وما على الجزء العسلي فينا او Ego الا ان ينشئ بهذه المطالب الخيالية

والنتيجة ان بكل انسان في الدنيا مساً من الجنون . اما فرويد فيقبل هذا الحكم واما نحن فترفض

وحدة العمر

لحسن كامل الصبرني

تعالَ فقد عرفتُ حدودَ نفسي وأدركتُ العادةَ بملءِ كامي
تعالَ إليَّ واسلاً رَجَبَ جِمي فأني اليومَ لستُ خيالَ أمرٍ

تعالَ فهذه الدنيا حيايَ رسومٌ لم تجملُ بالظلالِ
وأنتَ ملاذُ أطيَّارِ الخيالِ وأنتَ ريشي أسمى منالِ

تعالَ فقد نَحَطَّتِ الكؤوسُ ومالت من تفاعُلها الرؤوسُ
وتاهت في ضلالها النفوسُ تعالَ إليَّ تبعلكُ الشمسُ

تعالَ إليَّ تبعلكُ الشروقُ وتلغُ من خراطكُ البروقُ
فقد سكرَ الظلامُ فما يفتقُ وطال على مناجكُ الطريقُ

تعالَ ، تعالَ أسمعني غناءكُ أ تعالَ ، تعالَ صورتي سماءكُ
تعالَ ، تعالَ أشربني ضياءكُ فأني اليومَ ظنُّ أراءكُ

تعالَ غيرني اخذتُ ثوبتي أ تعالَ فرغيتي بدأتُ تعلتي
وقزعُ عن ثامبها التذلي أ تعالَ فأنتَ امرأُ التجلي أ

تعالَ ، تعالَ طهرني بباركُ وأهلي لأزج في سواركُ
تعالَ إليَّ طهرني وباركُ فؤاداً ظلَّ ينسُ في جواركُ

تعالَ فأنقذِ الإيمانَ مما يحاول أن يحيلَ الظهرَ إنما
ويعنُ في اجتذابِ النفسِ رغما فأنسى الحياةَ تفيضُ لثوما

تعال فهذه كأسُ الليالي بحومٍ عني حفايفها خيالي
وقتها يدٌ تدري ما لي فتقصيني ، وأي يدٍ أبالي !

* ** *

تعال فهذه اليدُ كم أشارتْ وحامت في انغلام وما نوارتْ
وأزعجتْ النفوسَ وما استثارتْ . بدأ أفقرى تحطبا ، فحارتْ ... !

* ** *

يدُ الأقدارِ تزجني دواما وتشمهري في سكينتي السهما
وتعلا رحبٍ إحساسي زحاما تعال خول الدنيا سلاما !

* ** *

سأزيمُ كسوتي وأخلُّ أرنو إلى الأفق البعيد وأنتِ تدنو
ونورُ الفجرِ يغمرني ويحنو علي صباحهُ وصنالكِ يدنو

* ** *

ستسمع أنت أمواج الأفاقي ترددها مزاميرُ الزمانِ
وتخلدُ في الصدى والصوتِ فانِ فهل لك أن تخلصني كياني ؟ !

* ** *

ستختلف الحياةُ أمامِ عيني تمرُّ طيوفها وتغيب عني
وتغنى في محيطٍ من تمثني وأحلامٍ تلوحُ بكلِّ لونٍ

* ** *

وما أنا غير طيفٍ من رؤاها تأخرتْ حينئذٍ حتى يراها
ويعرفُ ضعفها ومدى قواها وتفرحهُ وتبكيه منها

* ** *

تعلكُ فرعا جاوزتْ داري فتجذبني الحياةُ إلى قراري
فأمتني بين أضواءِ النهارِ إلى ليلي ويزا في انتظاري

* ** *

تعال وفي أحلامٍ وروحٍ ! تعال وفي أطيافٍ وروحٍ !
تعال وفي أضواءٍ تلوحُ ! تعال وفي أعطارٍ تفرحُ !

* ** *

تعال فقد بلغتْ حدودَ تمثني وأطمعُ أن أحققَ طيفاً حذمتي
فهل لك أن تذيبَ تلوحَ بأمتي وتخرجَ حاضري بعدي وأمتي ؟ !